تفكّك الثقافة الفلسطينيّة

سمير الزين

الخوض في مفهوم «الثقافة» سيرٌ في حقل ألغام. ونسبة الثقافة إلى شعب، كما في تعبير «الثقافة الفلسطينيّة،» لا يجعل الخوض في الموضوع أسهلَ أو أقلّ تفخيخًا. إنّ كلمة «ثقافة» شديدة الغموض، غيرُ محدّدة المعنى، يكتنفها «أشدُّ التعقيد» على حدّ تعبير تيري إيغلتون. لكنّ هذا لا يمنع من البحث عن معانيها في تجلّيات معيّنة. وما نقوله لا يلغي الغموض أو التفخيخ اللذين يكتنفان المصطلح، وإنما نحاول أن نقرأ المصطلح الغامض في سياق تجربةٍ لا تقلّ غموضًا وتعقيدًا، قصدنا التجربة الفلسطينيّة.

عندما نتحدّث عن ثقافة ما، علينا أن نحدّد أيّ ثقافة نعني؟ الشعارات وحدها لا تجيب على السؤال؛ فالكثير من القيم البالية يتمّ تكريسُها تحت شعار «الثقافة الوطنيّة،» وتحت عناوين تجنيسها بخصوصيّة شعبٍ ما. ولأنّ الثقافة في كلّ مكان ثقافات، فإنّ كلّ ثقافة هي ثقافة منحازة ولكنْ إلى أيّ موقع تنحاز في المجتمع الذي تشتغل في إطاره؟ هذا هو السؤال. موقع الثقافة أو انحيازها يعطيها حمولتَها وأدوارَها المجتمعيّة والتاريخيّة: التقليديّة، المحافظة، الاستكانيّة،... الاعتراضيّة، الاحتجاجيّة، النقديّة، الانشقاقيّة. . الخ ويخلق المجالَ الذي تنتمي إليه من الانحيازات التي يمكن أن يصطفّ فيها المنتجُ الثقافيُّ ذاتُه. صحيح أنّ كلّ منتَج ثقافيّ يطرح ذاته بوصفه فوق الانحياز، فوق الانقسامات، فوق التناقض، فوق الصراعات، أو يحاول عبر أوهامه أن يكون كذلك، ولكنه في النهاية خطابٌ يكرِّس واقعًا أو ينشقّ عليه.

ثم إنّ الثقافة ليست ذاتَ مردود سريع أيضًا. وإذا شبّهنا فعّاليةَ الثقافة بالسباقات، ففعاليّة الثقافة ودورها التنويريّ ينتميان إلى سباق المسافات الطويلة لا القصيرة، لذلك فهي كالحَفْر بالإبر: نتائجُها الإيجابيّة غيرُ مضمونة. ولأنّ أحدًا لا يحبّ الانتظار، وخصوصًا السلطات، والجميع يرغب في حصاد ثقافيّ اليوم والآن، فقد تمّ ويتمّ تسييسُ الثقافة، وبالتالي إفسادُها.

ما ينطبق على الثقافة عمومًا ينطبق على الثقافة الفلسطينيّة، التي يكتنفها الغموضُ أكثر من غيرها بحكم الظروف التاريخيّة المعقّدة والإشكاليّة التي وُلدتْ في سياقها. فقد وُلدت الثقافة الفلسطينيّة الحديثة، كالوطنيّة الفلسطينيّة الحديثة، في المنافي، أيْ في جغرافيا ثقافاتٍ أخرى، أكان هذا في مخيمات اللجوء أمْ في عواصم دول اللجوء، حيث طُبعَ كلُّ النتاج الثقافيّ الفلسطينيّ تقريبًا، ما قبل ولادة السلطة الفلسطينيّة على أثر اتفاقات أوسلو. ولئن أطلق الآخرون تعبيرَ «اللاجئين» على حالة الفلسطينيين بعد النكبة، فقد كان التعبير ومازال مرذولاً من الفلسطينيين أنفسهم: فهم عاشوا الغيابَ بوصفه استمرارًا للوجود في الوطن، وحَملوا معهم الأسماءَ والذكرياتِ وبعضَ الأشياء الصغيرة. فكان أنْ نقلوا ما يستطيعون نقلَه من الرموز، ليتحوّلوا أنفسُهم إلى «بلادٍ تتنقّل» بحسب تعبير إلياس صنبر. يَشرح صنبر الحالةَ الفلسطينيّة بعد النكبة ليقول إنّ ضياع الوطن قد عدّل جذرياً التشكيلةَ الثقافيّةَ الفلسطينيّة: فبدل أن يشكّل العام ١٩٤٨ لحظةً أصليّة، فإنّه شكّل ربطًا مفصليّاً أكّد بعضَ الجوانب الثقافيّة المحليّة، ولكنّه تمخّض عن أنماط تعبيريّة جديدة. فلئن لم يكن العام ١٩٤٨ مؤشّرًا على ولادة ثقافة فلسطينيّة جديدة، فمن المؤكّد أنّ الفلسطينيين سيبدأون اعتبارًا منه بالكلام أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى بصوتٍ «شخصيّ» ونبرةٍ جديدة، ويعبّرون عن قلقهم الخاصّ، ينشدون أو يبكون القدرَ الذي صار قدرَهم.

يولّد المنفى قلقَ الانتماء بين مكان الوجود اليوميّ والمكان الذي أتى منه المرءُ وينتمي إليه، في ذلك التوزّع بين اليوميّ القائم وبين العاطفة التي تعيد إلى أماكن أخرى. كان على الفلسطينيّ أن يجترح معجزةَ العيش، أن يخترع وطنًا، وجغرافيا، وثقافةً، وسياسةً، وحياةً، وصلاتٍ بين جموع في دول مختلفة؛ ذلك لأنه عاش يوميّاً بما يذكّره بعدم انتمائه إلى المكان الذي يقيم فيه ـ وهو أحد الأسباب التي جعلته غيرَ قادر على الانسجام مع المحيط الجديد. وشكّل الضغطُ الخارجيّ القادمُ من الدول المضيفة، والمتمثّلُ في عدم الرغبة فيه، عاملاً إضافيّاً لإنتاج

«الغيتو الفلسطينيّ» (المخيّم) والحفاظ على استمراره بأشكالٍ مختلفة.

يحاول إدوارد سعيد في كتابه **ما بعد السماء الأخيرة: حيوات الفلسطينيين** تصويرَ حالة الفلسطينيين بعد فقدان وطنهم. فنجدهم يتجسّدون نموذجًا مثاليّاً للمنفى، الذي يعطي صاحبَه نظرةً خاصةً إلى الحياة والأشياء، ويعطي استمراريّةً وانقطاعًا من نوع خاصّ. وهو يؤكّد اختلافَ مشاعر الفلسطينيين وتوحّدها في آن «فالحال أنّ مصيرنا قد كان من الاختلاف والتبعثر بحيث يستحيل مثلُ هذا التطابق. ومع ذلك، فليس من شكّ في أنّنا نشكّل جماعة/جالية بحقّ، وإنْ تكن جماعة/جالية مبنيّةً على المعاناة والنفي.» ويتساءل عن معنى الوجود الفلسطينيّ في ظلّ حالة الشتات التي يعانيها الشعبُ الفلسطينيّ. «هل نحن موجودون؟ وما دليلنا على ذلك؟ كلّما ابتعدنا عن فلسطين ماضينا، تقلقل مركزُنا واختلّ وجودُنا وتقطّع حضورُنا. متى صرنا شعبًا؟ متى كففنا أن نكون كذلك؟ أمْ هل نحن في طريقنا إلى أن نصير كذلك؟» في التجربة الفلسطينيّة تعمّق المنفى بمرور الزمن، وهكذا تغيّرتْ طبيعة الجماعة الوطنيّة الفلسطينيّة بشكل متزايد مع تغيّر المكان: «ببطء راحت حيواتُنا، شأنها في ذلك شأن فلسطين نفسها، تنحلّ إلى شيء آخر، فإذا بنا نعجز عن الإمساك بالمركز وقتًا طويلاً.» هذا العجز عن الإمساك بالمركز ما كان ليكون لولا الحياة الثابتة والمستقرّة والمتجانسة التي كان يعيشها الفلسطينيون في وطنهم قبل الاقتلاع؛ وهذا الاستقرار كان أساسَ المقارنة مع الحالة اللاحقة من الاقتلاع والشتات والمنفى. فبالاقتلاع «اختفى 'ثباتُ الجغرافيا' و'تواصلُ الأرض' اختفاءً تامّاً من حياتي وحياة الفلسطينيين. لذلك نحن نستعيد ونرفع الشيءَ بالشيء. لقد احتفظ الفلسطينيون بتموّجات أصواتهم كما كانت في يافا والقدس والمدن التي خلفوها، وإنْ صارت لهجاتُهم متأثّرةً بلهجة بيروت أو ديترويت أو باريس.» وتمّ تركيبُ حقائقَ جديدةٍ فوق الشيء الذي ضاع. فأخذت الأشياءُ الصغيرةُ في الحياة الفلسطينيّة تأخذ معناها المتجاوزَ لقيمتها، وتأخذ دلالاتٍ ماورائيّة: الصور الفوتوغرافيّة، الملابس، الأشياء المنتزعة من مكانها الأصليّ، طقوس الكلام والعادة. و«جميعُها أعيد إنتاجُها بكثرة، وكبرتْ، وحُوّلتْ إلى فكرةٍ أساسيّة، وطُرِّزتْ، وتُنوقلتْ كخيوطٍ في نسيج العلاقات التي نستعملها، نحن الفلسطينيين، لنربط أنفسَنا بهويّتنا، ولنربط الواحدَ بالآخر.» يتمثّل المأزقُ الفلسطينيّ بحسب إدوارد سعيد في إيجاد «مكان رسميّ» للفلسطينيين في نظامٍ لا يقدّم لهم أيّة فرصة؛ و«هذا ما يؤدّي إلى ارتجال الحلول إلى ما لا نهاية. إنّ الأشياء العابرة التي تنبني وتنفكّ هي التي نستخدمها لنصل إلى ما نريد. ذلك أننا لا نسيطر على أيّ جزء من العالم، ولا نؤثّر إلا في أجزاءٍ منه تزداد صغرًا. ومع ذلك فإننا لا نزال نواصل السير.» لقد أدّى ضياعُ «ثبات الجغرافيا» وضياعُ «تواصل الأرض» إلى ضياع قدرة الفلسطينيين على ألاّ يتشابهوا إلاّ في وصفهم منفيين.

وُلدت الثقافة الفلسطينيّة في أماكن الآخرين، إنها ثقافة المؤقّت، الانتقال إلى الطبيعيّ الذي لم يتوفّر لهم إلى اليوم. ولأنّ الظلم الذي عاشه الفلسطينيون كان من الكثافة بحيث حوّلهم إلى حالةٍ خاصةٍ لا تقاس إلا بنفسها، فإنهم لم يستطيعوا سوى أن يُنتجوا ثقافةً نقديّة، منشقّةً، ثقافةَ الألم، ثقافةَ المرفوضين، المهمّشين، المكنوسين تحت السجادة في المنطقة، لكنها في جميع الأحوال كانت ثقافة المؤقّت أيضًا. ومن أراد من الفلسطينيين أن يُنتج ثقافةً تقليديّةً ومحافظةً وتمالئ السلطان، فقد كان عليه أن يلتحق بسلطات دول المنافي واللجوء ومؤسّساتها. فالانتماء الفلسطينيّ (أو الإعلان عنه) كان انتماءً في وسط عربيّ رغمًا عنه، وعربيّتُه لم تنفِ غربتَه. كان يكفي أن تكون فلسطينيّاً حتى يجعل منك ذلك متَّهَمًا. لذلك لم يكن غريبًا أن تستقطب الحالةُ الفلسطينيّة، ممثّلةً في منظمة التحرير وفصائلها ومؤسّساتها ودورياتها الثقافيّة والبحثيّة، جزءًا مهمّاً من كبار المثقفين العرب النقديين في نهاية الستينيّات وبداية السبعينيّات؛ فلقد شكّلت التجربة الفلسطينيّة الكفاحيّة تجربة اعتراضيّة ونقديّة في الواقع العربيّ بعد هزيمة العام ١٩٦٧، وكانت موقعَ استقطابٍ للاتجاهات النقديّة العربيّة

❖ ❖ ❖

لكنّ هذه الحالة النقديّة دخلتْ مسيرةَ التأقلم مع الواقع الإقليميّ وأفق «الحلّ» الذي رسمتْ معالمَه حربُ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، التي كرّست «الحلَّ» المتوافقَ عليه دوليّاً وإقليميّاً للقضيّة الفلسطينيّة على أساس إفرازات هزيمة العام ١٩٦٧ ونتائجها، فتمّ تعديلُ الخطاب السياسيّ الفلسطينيّ للتوافق مع الوقائع الجديدة. وهذا ما عكس نفسَه في الخلافات الفلسطينيّة ـ الفلسطينيّة حول «البرنامج المرحليّ» الذي أسّس «لحلّ نهائيّ» للصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة وترافق ذلك مع ترسيم منظمة التحرير الفلسطينيّة عضوًا رسميّاً في جامعة الدول العربيّة والنظام الرسميّ العربيّ، ما خلق تمايزًا داخل النخبة الفلسطينيّة. بين المتكيّفين مع شروط النظام الرسميّ العربيّ، وبين الرافضين لهذا التكيّف المحافظين على الخط النقديّ

كان من الواضح أنّ منظمة التحرير تتحوّل إلى سلطة في النظام السياسيّ الفلسطينيّ الذي وُلد بفعل الاعتراف الرسميّ العربيّ وتكريس منظمة التحرير ممثلاً شرعيّاً وحيدًا للشعب الفلسطينيّ في منتصف السبعينيّات منذ ذلك الوقت والتحوّل الذي جرى في مكانة المنظمة، أخذت الحالة الفلسطينيّة الاعتراضيّة تخلق فرزًا داخل النخبة الثقافيّة الفلسطينيّة، وظهر خطاب سياسيّ وثقافيّ يؤسّس لتسوية سياسيّة ستأتي بأسوإ الحلول بعد عقدين في أوسلو. لقد أنتج النظامُ السياسيّ الفلسطينيّ، على الرغم من عدم امتلاكه جغرافيا خاصةً به، أو

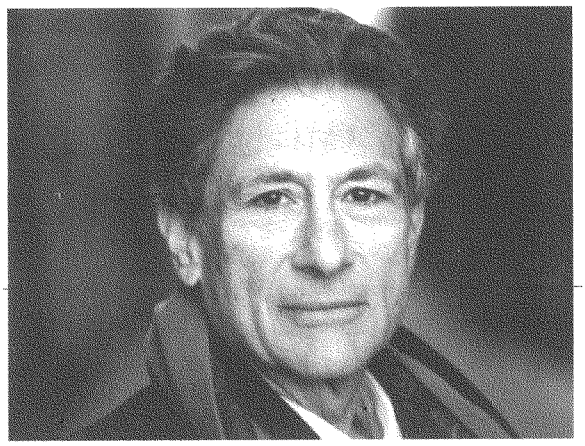

إدوارد سعيد. «ليس من شكّ في أنّنا نشكّل جماعة/جالية بحقّ، وإنْ تكن جماعة/جالية مبنيّةً على المعاناة والنفي »

بسبب فقدان هذه الجغرافيا، ما يمكن تسميتُه «قبيلةَ العمل السياسيّ الفلسطينيّ» التي تنقّلتْ ما بين الأردن ولبنان وتونس لتعود إلى الأراضي الفلسطينيّة بعد اتفاقات أوسلو. هذه «القبيلة» أمسكتْ بتلابيب القرار السياسيّ الفلسطينيّ منذ نهاية الستينيّات إلى اليوم. وإذا كان التمايز قد ظهر خلال السبعينيّات والثمانينيّات خلافاتٍ داخل الصفّ الوطنيّ الفلسطينيّ الواحد (وصلتْ إلى الصدام المسلّح في النصف الأول من الثمانينيّات)، فقد كانت عودةُ «قبيلة العمل السياسيّ الفلسطينيّ» إلى الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة عبر اتفاقات أوسلو (وإنْ سمّى الفلسطينيون إدارتَهم الذاتيّة وزاراتٍ) انتقالاً إلى سلطةٍ معترفٍ لها على الأقلّ بالسيطرة على السكّان. وفي اللحظة التي أصبحتْ «قبيلةُ العمل السياسيّ الفلسطينيّ» تسيطر على جزء من الأرض الفلسطينيّة، وقبل أن تكتمل هذه السيطرةُ بدولةٍ وطنيّة، اكتمل تبلورُ المثقف التقليديّ المحافظ في الساحة الفلسطينيّة، ليولد مع ولادة السلطة الفلسطينيّة ما سمّاه مريد البرغوثي «المثقفَ السعيدَ.» هكذا، وفي ظلّ السلطة الذاتيّة العظيمة، أصبح هناك العديدُ من المواقع، والوزارات، ووكلاء الوزارات، والمؤسّسات الثقافيّة ـ وكلّها أبواقٌ للسلطة، لا تنتج أيّ ثقافة، تمّ من خلال ملء شواغرها شراءُ ذمم العديد من المثقفين وأشباه المثقفين. حدث ذلك حين كانت الثقافةُ الفلسطينيّة النقديّة قد دخلتْ مرحلةَ احتضارها، لا بالانفكاك عن المنظمة فحسب، بل عن جميع فصائل العمل الوطنيّ الفلسطينيّ أيضًا.

وُلد النتاجُ الثقافيّ الفلسطينيّ الرئيسيّ في الشتات وداخل إسرائيل، وكانت مساهمةُ الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة هي المساهمةَ الأضعفَ في اللوحة الثقافيّة الفلسطينيّة خلال السنوات الخمسين الماضية. وعندما وصلت النخبةُ الفلسطينيّة السياسيّة والثقافيّة التي تربّعتْ على قمّة العمل السياسيّ والثقافيّ الفلسطينيّ خلال أربعين عامًا إلى اتفاقات أوسلو كانت قد تعفّنتْ. وعندما دخلت الأراضي الفلسطينيّة، كانت المؤسّساتُ الثقافيّة هياكلَ فارغة؛ وليس أدلَّ على ذلك أنّ مكتبة «مركز الأبحاث الفلسطينيّ» التي سلّمتْها إسرائيلُ إلى الفلسطينيين ونُقلتْ إلى الجزائر لم يبذل أحدٌ جهدًا لاستردادها، وهي تحتوي وثائقَ مهمّةً واستثنائيّة. هذا التعامل مع كنز ثقافيّ هو المؤشّر إلى مستوى تعامل هذه السلطة مع الثقافة الفلسطينيّة التي تفكّكتْ وضاعت كما ضاعت مكتبةُ مركز الأبحاث وعشراتُ الكنوز الفلسطينيّة الثمينة

تكمن أزمةُ الثقافة الفلسطينيّة في الفصام بين نتاجها التاريخيّ النقديّ وواقعها اليوم، أو في الانفصال بين انتمائها النقديّ وواقع السلطة التكيّفيّ. فالثقافة الفلسطينيّة النقديّة دافعتْ لعقود عن فلسطين أخرى، فلسطين لا تشبه البقعَ السكّانيّةَ التي يسمّونها اليومَ فلسطينَ، وتمّ استبدالُ فلسطين التي صاغتها ثقافةُ المنافي بفتات فلسطين. لقد تفكّكت الثقافةُ الفلسطينيّة مع تفكّك المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ، ومع صناعة السياسة من أشباه القادة، ومع إنتاج الثقافة من أشباه المثقفين، في وطنٍ يُنْكر منتجي ثقافته في الشتات وداخل الأرض الفلسطينيّة المحتلّة عام ١٩٤٨ ـ وهذه هي ذروة تفكّك الثقافة الفلسطينيّة.

دمشق

سمير الزبن

كاتب فلسطينيّ